موسى البديري*

# تأملات في تاريخ مكتوم:
# الحزب الشيوعي الفلسطيني والأممية**

هذه مقدمة الطبعة الجديدة من الدراسة التي كتبها موسى البديري في سنة ١٩٧٩ بعنوان: "الحزب الشيوعي الفلسطيني، ١٩١٩–١٩٤٨: العرب واليهود في الصراع من أجل الأممية" *(The Palestine Communist Party, 1919 – 1948: Arab and Jew in the Struggle for Internationalism. United States: Haymarket Books,2010)* وهو يتأمل فيها أوجه قصور الحزب الشيوعي الفلسطيني ونجاحاته في بلورة رؤيةٍ وبرنامج سياسي ينازعان كلاً من القومية والرأسمالية وسط "مواجهة استعمارية ذات طابع فريد."

عندما شرعتُ في بحثي في سنة ١٩٧٠، كنت أتصور أنني منكبّ على مشروع سياسي أحاول فيه أن أنقذ قطعة من تاريخ فلسطين في الأعوام التي أعقبت الثورة البلشفية في سنة ١٩١٧، وأعيد بناءها، ذلك بأن مجرد وجود حركة شيوعية في فلسطين تضمّ في صفوفها أعضاء من العرب واليهود كان يشير إلى مستقبل ممكن، يختلف عن كل من القومية والرأسمالية. وكان الحزب الشيوعي الفلسطيني نجح، خلال فترة وجوده القصيرة، في أن يجمع العامل العربي واليهودي على برنامج للتضامن الطبقي.

وعلى الرغم من أوجه القصور العديدة، فقد سعى الحزب الشيوعي الفلسطيني لأن يكون له موطئ قدم وسط مواجهة استعمارية ذات طابع فريد. وواجه، علاوة على القوة الاستعمارية البريطانية، عدواً آخر تمثّل في حركة قومية يهودية شرعت تنفّذ مشروعها الاستعماري الاستيطاني. وتضافر هذا الوضع مع سيطرة ستالينية على كل من الدولة السوفياتية والأممية الشيوعية (الكومنترن). وعلى الرغم من استغراقه، في النهاية، في لجّة الصراع القومي العنيف، فإن الحزب

* أستاذ السياسة في برنامج الديموقراطية وحقوق الإنسان في كلية الدراسات العليا في جامعة بير زيت، ومقيم في القدس.

** **المصدر**: Musa Budeiri, "Reflections on a Silenced History: The PCP and Internationalism", *Jerusalem Quarterly*, vol. 49 (Spring 2012), pp.68-78

**ترجمة**: ثائر ديب.

الشيوعي الفلسطيني أفلح في بلورة تصوّر عريض اشتمل على جميع الخصائص البارزة التي تَسِم برنامجاً سياسياً كان له أن يجتاز اختبار الزمن؛ ومن ذلك الاعتراف بضرورة الوحدة العربية كشرط للتغيير الاجتماعي والاقتصادي في الجزء الشرقي من العالم العربي، وبالأممية كشرط مسبق لإقامة دولة جديرة بالبقاء في منطقة متعددة الأعراق والثقافات كانت تحاول بعد قرون من الحكم العثماني أن تتخلص من الحكم الاستعماري البريطاني والفرنسي، ذلك بأن مشكلات فلسطين لا يمكن أن تُحَلّ إلاّ في سياق إقليمي واسع.

وفي محاولة مني لإعادة بناء حزب مكوَّن من بشر، لا من برامج أيديولوجية، سعيت للقاء أكبر عدد ممكن من أعضاء الحزب ومناضليه (الذين كانوا قد تقدّموا في السنّ آنذاك). ولم تكن قد نُشرت عن تاريخ الحزب في ذلك الوقت سوى مادة قليلة كان ألّفها منغمسون في الحرب الباردة و/ أو كانت تنمّ عن تحيز استشراقي يتعامل مع الحزب على أنه جزء لا يتجزأ من سردية كبرى هي الاستيطان اليهودي المعاصر في فلسطين.[١] وكانت أوضاع تاريخية قد أدت إلى إزالة أسماء الأعضاء العرب من سجل تاريخ الحزب، وامّحوا من الذاكرة. ومع أنني لم أكن أرمي إلى وضع تاريخ شفوي، إلاّ إنه بدا ضرورياً أن أنبش هؤلاء وأسجّل روايتهم، مشيراً في الوقت ذاته إلى أن الزمن ترك آثاره على تلك الروايات الشخصية، بتبدّل الأوضاع السياسية والشخصية، وعبر التنازع والقضايا الشخصية، كما من خلال محاولة تقديم موقف صائب سياسياً بأثر رجعي.

منذ ذلك الحين فصاعداً، ظهرت، بالعربية والإنجليزية والعبرية، أعمال كثيرة تُعنى بتاريخ الحزب والطبقة العاملة في فلسطين. غير أن أيّاً منها لم يقدّم طريقة جديرة بالنظر، ما عدا اثنين. فقد وفّرت المراسلات الموجودة في محفوظات موسكو، بين القسم الشرقي للكومنترن وقيادة الحزب، فرصةَ قراءةٍ جديدة لتاريخ الحزب الداخلي.[٢] ولم تغدُ هذه المراسلات متاحة للباحثين إلاّ مؤخراً. كما نشر عدد من المناضلين الشيوعيين القدامى مذكراتهم السياسية، وبعضها يلقي من الضوء أكثر مما يلقيه بعضها الآخر.[٣]

حاول الحزب الشيوعي الفلسطيني، منذ انطلاقه كمجموعة ذات أساس عمّالي بين جماعة صغيرة من المهاجرين اليهود في فلسطين، أن يوفّق بين التمسك بالصهيونية وعضوية الكومنترن، بينما أراد الكومنترن من جانبه أن يتحول الحزب الى منظمة محلية تمثّل سكان البلد الأصليين. وعلى الرغم من التغيرات الكثيرة التي اعترت سياسة الكومنترن نتيجة ضرورات السياسة الخارجية السوفياتية، فإنها ظلت ملتزمة استراتيجيا التعريب طوال الوقت. وسعى الحزب، في محاولته ترجمة توجيهات الكومنترن إلى سياسات عملية، لإدراج الجناح الوطني الثوري الراديكالي ضمن الحركة الوطنية الفلسطينية العربية. وقد تخيّر أن يرى في حمدي الحسيني،[٤] الصحافي الغزّاوي، وتلك المجموعة الصغيرة من رفقائه التي شكّلت فريقاً داخل حزب الاستقلال، ممثلاً لهذا الاتجاه الراديكالي. وتوضّح وثائق نُشرت حديثاً أن الحزب، منذ اعتراف الكومنترن به قسماً منه في سنة ١٩٢٤، وحتى انقطاع الصلة خلال الفترة ١٩٣٧–١٩٣٨، كان على اتصال دائم بموسكو طلباً للتوجيه والدعم.[٥] وقد امتد ذلك ليطال كل كبيرة وصغيرة، الأمر الذي يجعل من الصعب الحديث عن الحزب الشيوعي الفلسطيني كمنظمة مستقلة. وعنى فقدان الصلة مع موسكو عجز الحزب عن العمل كمنظمة يهودية ـ عربية موحدة، مع أن القطيعة الرسمية لم تحدث إلاّ في سنة ١٩٤٣ مع حلّ

الكومنترن رسمياً، في لفتة من موسكو إلى حلفائها الغربيين. وقد أشار رضوان الحلو، الأمين العام للحزب في سنة ١٩٤٣، إلى أن سلطته بقيت من دون منازع ما دامت موسكو تدعمه.[٦] ويبدو واضحاً من الوثائق بالفعل أن السلطة على قيادة الحزب لم تكن مستمدة من الأعضاء، وإنما من مسؤولي الكومنترن. وكانت موسكو هي التي تعيّن قادة الحزب جميعاً، منذ إرسال مؤسس الحزب الأول، وولف أورباخ.[٧]

وكي نفهم جدالات أوائل عشرينيات القرن العشرين، فإن من الضروري أن نتذكر أن الشيوعيين، بعد فترة سنة ١٩١٧ مباشرة، كانوا يعتقدون أن مستقبل ثورتهم يكمن في نشر الثورة الاجتماعية في البلاد الرأسمالية المتقدمة ـ وخصوصاً في أوروبا ـ وليس في ضروب الكفاح من أجل الاستقلال الوطني في المستعمرات. وكان الحزب الشيوعي الفلسطيني، شأنه شأن عدد من الأحزاب الشيوعية، قد وُلِد في دينامية الحركة الاشتراكية العالمية هذه. وفي أعقاب النجاح البلشفي، أدى الحصار الذي ضُرب حوله، متضافراً مع إخفاق الثورة الاشتراكية في أوروبا، وتوطد سلطة ستالين في موسكو، إلى انتصار مذهب "الاشتراكية في بلد واحد". وسعت التبريرات النظرية التي قدّمتها الستالينية لإضفاء الشرعية على واقع سياسي قائم أصلاً. وكانت النتيجة أن أسئلة كثيرة راحت تطرح نفسها، بشأن طبيعة السياسة الخارجية التي يجب أن تتبعها الدولة الاشتراكية الجديدة ودور الأحزاب الشيوعية المتعددة كلّ في بلده. وغدا دفاع الثورة عن نفسها، حتى قبل **المصلحة العليا** للدولة السوفياتية، الدافع الأساسي للسياسة السوفياتية التي راحت تفتش عن سبل لإزاحة الستار الحديدي الذي فرضته الرأسمالية الغربية. وأوحى إضعاف القوى الرأسمالية الغربية بكسر الحلقة في أضعف حلقاتها، ألا وهي مستعمراتها ما وراء البحار ومصدر ثروتها، الأمر الذي استدعى الانخراط في الكفاح من أجل تحرر تلك المستعمرات.

وكانت لفلسطين أوضاعها الخاصة ضمن النظام الاستعماري. فقد أخذت بريطانيا على عاتقها مهمة تسهيل قيام الوطن القومي اليهودي، وهو ما دعاها إلى رعاية الهجرة اليهودية إلى البلد، وحمايتها، وتشجيع مؤسسات الحكم الذاتي التابعة للجالية اليهودية. وجرت شَرْعَنَة ذلك على أنه عمل دولي عهدت به عصبة الأمم إلى بريطانيا.

وأفضى صعود النازيين إلى سدّة السلطة في ألمانيا في ثلاثينيات القرن العشرين إلى هجرة يهودية ضخمة إلى الولايات المتحدة، والدول الأوروبية المجاورة، وإلى أي مكان آخر استطاع اللاجئون اليهود أن يجدوا مدخلاً إليه، وساعد ذلك في تغيير طبيعة الجالية اليهودية في فلسطين. ففي البداية لم يكن عدد المهاجرين اليهود مهماً، وكانت الصهيونية لاعباً صغيراً في السياسات اليهودية الأوروبية، وكانت تواجه أحزاباً أعرق وأقوى بكثير، تقليدية وثورية. وفي فلسطين ذاتها، حتى ثلاثينيات القرن العشرين، كانت الجالية اليهودية صغيرة، ولم تكن تحتل مكاناً بارزاً في حياة البلد السياسية والاقتصادية، غير أن معدل الهجرة المتزايد، وخصوصاً وصول ٢٠٠,٠٠٠ لاجئ يهودي ألماني في أواسط الثلاثينيات، غيّر الوضع.

لقد نجحت الحركة الصهيونية في تكريس فلسطين كمركز للجوء وملاذ لجزء على الأقل من اليهود الأوروبيين المهددين. ومع أنه لم يكن مطلوباً من القادمين الجدد أن يقدّموا أوراق اعتماد صهيونية، إلاّ إن المهاجرين باتوا، موضوعياً، جزءاً من المشروع الاستيطاني الصهيوني بوصولهم إلى فلسطين. وكان لثورة العرب في أواسط ثلاثينيات القرن العشرين

ذلك الأثر غير المقصود والمتمثل في تشجيع استقلال الجالية اليهودية. ومع نهاية الثورة، وعبر الهجرة، كان قد تمّ الوصول إلى كتلة حرجة. وتحظى اقتراحات لجنة بيل في سنة ١٩٣٧ بأهمية على هذا الصعيد، وهي أول مرة يتحدث فيها سادة البلد البريطانيين صراحةً عن التقسيم. وخلال الأعوام العشرة التالية، وحتى حدوث التقسيم في سنة ١٩٤٨، كانت هذه هي الأجندة السياسية الخفية التي أملت مسار الأحداث.

لم تعد فلسطين في أواسط الثلاثينيات بلداً عربياً صرفاً فيه جالية يهودية تقليدية أصلية وأقلية صغيرة من المهاجرين الأوروبيين، وباتت "العواقب الديموغرافية للصهيونية"[٨] أساسية في تشكيل أي مستقبل محتمل. وحتى ذلك الحين، لم يرَ الحزب الشيوعي الفلسطيني ولا الكومنترن الصراع بين العرب واليهود على أنه مواجهة استعمارية، وكان سيبدو مدهشاً لو أنهما رأياه كذلك. فقد شهد العالم الحديث في أعقاب الحرب العالمية الأولى مختلف صنوف الحروب ـ الاستعمارية والأهلية والثورية ـ لكنه لم يشهد أي مشاريع استعمارية استيطانية جارية، ولم يشهد طبعاً مشروعاً لا تعمد فيه القوة الاستعمارية إلى تحويل رعاياها إلى مستوطنين، وإنما تعتمد على أناس قدموا من شتّى البلاد بهدف "إعادة خلق" أنفسهم كأمّة. وفي رؤية الحزب للعالم (كما في رؤية الكومنترن)، فإن المهاجرين اليهود إلى فلسطين، ما إن يصلوا إلى البلد، كانوا يكتسبون حقوقاً مساوية لحقوق السكان الأصليين. ونظر الحزب والكومنترن إلى الصراع في فلسطين من منظور طبقي، وليس قومياً، ورفضا تلك النظرة التي وصفاها بالانهزامية، والتي ترى أن الجالية اليهودية تشكّل كتلة غير متمايزة، وأن جميع اليهود في فلسطين معادون للثورة. وكذلك، حُكِم على اللازمة التي فحواها أن جميع العرب ثوريون بأنها واهية نظرياً. وكان التخلي عن هذه الرؤية يعادل التخلي عن أي أمل بالعمل وسط العمال اليهود أو نيل دعمهم، وكان ينقض **مبرر وجود** الحزب. وفي النهاية، فإنه إذا ما كان هناك بروليتاريا حديثة في فلسطين، فإن هذه البروليتاريا كانت يهودية أساساً. ومن الناحية العملية، فإن التعامل مع الجالية اليهودية على أنها كتلة صهيونية متراصة، كان كفيلاً بأن يسوق الأعضاء اليهود الأشد التزاماً من الناحية الأيديولوجية إلى مغادرة البلد، الأمر الذي يزيد في إضعاف الحزب.

كانت ترسانة الحزب النظرية أشد ملاءمة بالضرورة لخوض معركة طبقية، لكنه وجد نفسه في وضع لم يختره. والحزب، في النهاية، كان قد وُلد في طيات الحركة الصهيونية، وإن يكن ضمن جناحها اليساري. وتمثّل هذا في بقاء أعضاء الحزب وقيادته من الصهيونيين بصورة أساسية حتى أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، لكن الصهيونيين الذين تحولوا إلى الشيوعية فقدوا، في معظمهم، الرغبة في البقاء في البلد ما إن انقشعت أوهامهم. وفي أحسن الأحوال، كانت مهمة العناصر البروليتارية الأكثر استنارة، هي تغيير شروط السكان العرب المحليين، غير أن الحزب كان يدرك تماماً أصوله الاستيطانية، وأن أعضاءه يُنظَر إليهم كدخلاء، وأنهم ليسوا على ألفة باللغة المحلية، وليسوا جزءاً من النسيج الاجتماعي للمجتمع العربي. وفي حين كان ذلك كله يُعَدّ ضعفاً، إلاّ إنه لم يكن يُعتَبر عقبة كأداء لا يمكن تجاوزها. وسعى الحزب لتمثيل المصالح الموضوعية لكل من الشعب الكادح العربي واليهودي، الذي يشكّل الأغلبية الساحقة من سكان البلد، وكان على الرفاق اليهود أن يؤدوا دور القادة والناصحين في مراحل شتى، وأن يقوموا بدور مشاة الحزب. وتشهد تقارير الشرطة والصحف على أن الذين اعتُقلوا وهم يوزعون منشورات الحزب وبياناته، أو لدى

مشاركتهم في التظاهرات، كانوا، في معظمهم، من الأعضاء اليهود، حتى بعد إقرار التعريب رسمياً بصفته عقيدة الحزب الرسمية، وبعد تخطّي مسألة البلْشَفَة، وتعيين رفيق عربي أميناً عاماً للحزب. وظلّ الرفاق اليهود هم أكثرية أعضاء الحزب حتى النهاية، وحتى انشقاق الحزب في سنة ١٩٤٣.

وليس واضحاً أن الحزب أحاط تماماً بديناميات المجتمع العربي، أو أدرك سيرورة تشكّل الهوية القومية التي كانت جارية في أعقاب تقسيم الإنجليز والفرنسيين بلاد الشام، وإنما من الواضح أنه لم يكن لديه سوى فهم ضئيل لكيفية تحقيق أهدافه في غياب طبقة عاملة عربية، كما أنه لم يكن قادراً على الوصول إلى الفلاحين العرب. ولم يكن كافياً على هذا الصعيد أن يعلن الحزب الأهميةَ الجوهرية التي تتسم بها المسألة الزراعية، وهو الأمر الذي فعله، ولا أن يعلن أهميةَ الوحدة العربية، وهو الأمر الذي فعله أيضاً، في حين لم يكن تشكيل أقسام منفصلة في دول الانتداب العربية يتقدم بقضية الوحدة. وربما كان من الملائم أن نطرح السؤال عمّا إذا كان الكومنترن ذاته، والذي بقي الحزب على إخلاصه له، قد فهم، في أي وقت، دور الصراع الوطني. فقد تمسك، في حالة فلسطين، بنظرة عريضة تجد عداءً جوهرياً بين المجتمع المستعمَر كله والقوى الاستعمارية الأجنبية، واستثنى من هذه النظرة شريحة ضئيلة من الزعماء الدينيين والتقليديين الإقطاعيين الذين سيطروا على الحركة الوطنية، وكانوا عاجزين عن قيادة الكفاح ضد الاستعمار. لكن الحركة الوطنية ذاتها كانت متمايزة، وكان بين صفوفها جناح راديكالي مستعد لخوض الصراع ضد الاستعمار البريطاني، وقد رفض أن ينحرف صوب توجيه طاقاته ضد الجالية اليهودية.

وكان على الحزب أن يواجه انتقاداً صادراً عن صفوفه بالذات فحواه أنه يدعم الحركة الوطنية العربية دعماً غير نقدي، وقد اعترف قادة الحزب لاحقاً، في مراسلاتهم مع رؤسائهم في القسم الشرقي، بارتكاب أخطاء خطرة. غير أنه إذا كانت هذه "الأخطاء" ارتُكبت في مرحلة معينة خلال الطور الأول من الثورة المسلحة في سنة ١٩٣٦ نتيجة فتح الحزب صفوفه وقيادته أمام جيل جديد من الأعضاء العرب، فإن السجلات توضح أن قيادة الحزب كانت تدرك المخاطر التي يطرحها السعي وراء مثل هذه السياسات.[٩] ومن الواضح أيضاً أن الانقسام لم يكن على أساس الهوية الإثنية أو القومية، وإنما على أساس فهم سياسي لما يجب أن يكون عليه الخط الصحيح. والمشكلة تكمن في تحليل الكومنترن المغلوط فيه للصراع الوطني على أساس تجربة بلاد أوروبية معينة، خرجت منذ زمن بعيد من بوتقة تشكيل الدولة القومية، وتركزت التناقضات الداخلية فيها على الهويات الطبقية لا على الهويات القومية أو الدينية.

أمّا سياسياً، فقد بقي الحزب عاجزاً عن إيجاد لغة مشتركة تخاطب مصالح كل من العرب واليهود في فلسطين. فكان يخاطب العمال اليهود بلغة الصراع الطبقي، ويخاطب العرب بلغة العداء للإمبريالية، وأعلن أنه في المعسكر المعادي للإمبريالية، الأمر الذي أدى إلى اغتراب جزء كبير من أعضاء الحزب اليهود. وكانت بريطانيا العدو الأساسي، ليس لأسباب تتعلق بالصوابية الأيديولوجية فحسب، بل أيضاً كانعكاس لوقائع تتعلق بالمصالح الوطنية السوفياتية، وهذا ما اتضح لدى اندلا ع الحرب العالمية الثانية في أيلول / سبتمبر ١٩٣٩. فقد أخفى الحزب دعمه الحرب (وكان هذا تكتيكاً شعبياً بين العرب، لكنه لم يكن مقبولاً لدى الأغلبية الساحقة من السكان اليهود)، وعانى جرّاء ذلك السياسةَ القمعية

البريطانية. ولدى دخول الاتحاد السوفياتي الحرب في سنة ١٩٤١، غيّر الحزب المسار وراح يمارس سياسة مؤيدة للحرب بقوة.

وليس **واضحاً** ما إذا كان الحزب فهم على نحو جليّ بما يكفي أن لا مجال لحلّ الصراع في فلسطين إذا لم يؤخذ التعايش العربي ـ اليهودي المشترك في الحسبان، بل إنه قدّم الطبقة كأساس للمصالح المشتركة. لكن الجماعتين كانتا تعيشان على نحو منفصل، والأهم من ذلك أنهما كانتا تنظران إلى العلاقات مع القوة الاستعمارية من منظورين مختلفين: فالعرب نظروا إلى بريطانيا على أنها قوة إمبريالية تسهّل نماء اليهود في فلسطين وقوتهم، أمّا الجالية اليهودية، التي انتفعت من وعود البريطانيين وسياساتهم، فكانت تواقة إلى مزيد من الدعم البريطاني، واعتبرت أن من واجب بريطانيا أن تدافع عنها، وقد تنامت معارضتها الانتداب البريطاني في أعوامه الأخيرة انطلاقاً من الشعور بالخيانة. أمّا بالنسبة إلى القوميين العرب، فإن جميع المهاجرين اليهود إلى فلسطين كانوا غير شرعيين، ولم يكن في إمكانهم أن يتصوروا حقوقاً سياسية لأبناء جالية مهاجرة، ليس على المستوى الجماعي فحسب، بل على المستوى الفردي أيضاً.

كان الإلحاح، بالنسبة إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني، على الحاجات والمصالح الاجتماعية والاقتصادية المشتركة وليس على الهوية العرقية، وكان يرى أن هذه الحاجات والمصالح تتقاسمها الأغلبية الساحقة في كلتا الجماعتين، ما خلا شريحة ضئيلة من خدم الإمبريالية البريطانية من كلا المعسكرين القوميين. أمّا كون إحدى الجماعتين هي السكان الأصليين والأُخرى جزءاً من مشروع استعماري استيطاني فلم يكن مهماً أو ذا صلة.[١٠] هذا في النظرية. أمّا في الممارسة، وكما تبيّن وثائق الحزب، فإنه لم يكن في استطاعة قيادة الحزب العربية، في أوقات اشتداد الصراع القومي، أن تبقى في منأى عن التأثر بالجو الوطني العربي العام، الذي لم يكن يسمح لها بأن تنظر إلى الجالية اليهودية كمجتمع متمايز تشقّه المصالح المتضاربة.[١١] وهذا ما يصحّ أيضاً على أعضاء الحزب اليهود، الذين ابتعدت أغلبيتهم عن النشاط، أو عملت على إقامة فصائل مستقلة خلال الثورة العربية.

وكي نفهم الوضع الذي كان يواجه الحزب، ربما كان ضرورياً أن نطرح عدداً من الأسئلة، منها ما إذا كان الحزب الشيوعي الفلسطيني أفلح في أي وقت، في التحول إلى منظمة محلية، وإذا ما كان قد أفلح، فما الذي يكشفه هذا الأمر عن إقامة عصبة التحرر الوطني[١٢] كإطار للشيوعيين العرب والوطنيين اليساريين في سنة ١٩٤٤، وعن وجود شيوعيين يهود مستقلين في عدد من المنظمات اليهودية الصرفة على الرغم من تنافسها؟ ويجدر بنا أن نتقصّى ما إذا كان الحزب الشيوعي الفلسطيني دعا فعلياً، قبل دعوة السوفيات إلى قيام دولتين، إلى إقامة دولة من نوع ما: عربية؟ أم ثنائية القومية؟ أم دولتين، أم سوى ذلك؟

وكان واضحاً، حتى قبل نهاية الانتداب واندلاع الصراع بين أهل البلد والمستوطنين، أن البريطانيين لم يهدفوا إلى خَلْق هوية أو جنسية فلسطينية جديدة ولم يخلقوها، وأنه كان في البلد جماعتان قوميتان منفصلتان ومتعارضتان، العرب واليهود، لكل منهما مطالبها القومية الحصرية. لكن الحزب لم يعترف بذلك، وواصل إلقاء اللوم على سياسة "فرّق تسُدْ" البريطانية، كما أن التحدي الذي مثّلته طبيعة الجالية اليهودية المتغيرة والمتطورة لم يُقابَل بأي جهد نظري من طرف الحزب أو الكومنترن. وكان أن فرضت الأحداث نفسها على الحزب، وكان للأعضاء العرب

واليهود استجاباتهم المتنوعة، ذلك بأنهم لم يكونوا يعيشون الواقع الثنائي القومية ذاته، وإنما كانوا يعيشون ويناضلون كلٌّ داخل جماعته القومية الخاصة التي يراها متمايزة ومتدرجة، وكان هذان عالمان مغلقان أتاحا لكلّ من هذين الفريقين راحة المواقف الصائبة. وفي ثلاثينيات القرن العشرين، راحت العلاقات بين الحزب والكومنترن تضعف إلى أن انقطعت تماماً في الأعوام الأخيرة من الثورة العربية، وكان لذلك أثره المضاعف. فقد سُمح لأعضاء الحزب بأن يتّبعوا ميولهم الخاصة، كما أن انزياح قبضة الكومنترن عزّز ما لدى كل جماعة من نزعات قومية، فضلاً عن أن غياب موسكو، في الوقت ذاته، عمل على إضعاف موقع الأمين العام للحزب، الذي راح عندئذ يشكّل فريقاً آخر منافساً، إذ لم يَعُد في حِمى عصمة الكومنترن.

ومن المغري السؤال إلى أي مدى غيّر الحزب تحليله للصراع في فلسطين، وإذا ما كان قد غيّره، فمتى توقّف عن اعتباره صراعاً ضد الاستعمار في المقام الأول؟ ولا شك في أن جماعات متنوعة من الشيوعيين اليهود اعتراها مثل هذا التحول، ويمكن أن نرى في معارضة التعريب وإثارة النقاش في شأن عملية بَلْشَفَة الحزب دليلاً على التردد في اتّباع سبيل يزيح ثقل نشاط الحزب من الميدان الاجتماعي إلى الميدان الوطني (القومي). لقد بقي موقف الحزب النظري متّسقاً في رؤيته إلى التمايز والانقسام القائمين داخل كلٍّ من اليهود والعرب، ولذلك أُعطيت الأولوية إلى المصالح والفوارق الطبقية المتنازعة، وكان ثمة ضرورة لإبقاء النشاط داخل كل جماعة قومية. غير أن نشاط الحزب، في سعيه لترسيخ أقدامه في صفوف العرب، بدا كأنه يسوق إلى تبنّي الشعارات الأساسية التي رفعتها الحركة الوطنية العربية الفلسطينية، مثل وَقْف الهجرة، ووقف بيع الأراضي، وإقامة دولة عربية مستقلة. ومع حلول مرحلة الجبهة الشعبية، التي أعلنها مؤتمر الكومنترن السابع في سنة ١٩٣٥، صار في إمكان الأعضاء العرب واليهود أن يحاججوا بأنه بات متاحاً للحزب أن يقيم صلات مع العناصر التقدمية داخل المعسكرين القوميين كليهما. وكانت هذه بداية الاعتراف الرسمي بالتوازن بين الجماعتين القوميتين، من دون الدخول في نقاش عمّا إذا كانتا تمتلكان حقوقاً سياسية متساوية، أو عن شرعية دعاوى كل منها.

وستجتمع شتى جماعات الشيوعيين اليهود، في سنة ١٩٤٨، على دعم إقامة الدولة اليهودية ضمن الحدود التي رسمتها مقترحات التقسيم الصادرة عن الأمم المتحدة. وفي حين كانت هذه الجماعات ترفض سياسياً الممارسات الصهيونية الرامية إلى إقامة وطن قومي، ودعوتها الصريحة منذ مؤتمر بلتمور في سنة ١٩٤٢ إلى إقامة الدولة، فإنها واجهت نتائج نجاح هذه المبادرة التي اضطرتها تطوراتها، الإقليمية والدولية، إلى النزول عندها.

أمّا الحركة الوطنية العربية فإنها، باستثناء مجموعة حمدي الحسيني، التي لعلها كانت تبالغ بقدرات الحزب، لم تُبْدِ أي اهتمام بهذا الأخير ونشاطه، وكثيراً ما نظرت إليه نظرة عداء (كما يظهر من الصحافة العربية التي كانت تنشر بانتظام موادّ تحذّر من الفيروس البلشفي الذي يحمله المهاجرون اليهود، وتنبّه السلطات إلى الخطر الذي ينطوي عليه النشاط الشيوعي، وبالتالي الهجرة اليهودية)، وبقيت جاهلةً وغير مكترثة بما كانت تعتبره نزاعات يهودية داخلية. وكانت ترى أن جميع المهاجرين، بصرف النظر عن أيديولوجيتهم أو انتمائهم السياسي، هم جزء من المشروع الاستيطاني الذي يجب الوقوف في وجهه. وحتى في أواسط أربعينيات القرن العشرين، حين انتظم الشيوعيون العرب

ضمن إطارهم "القومي"، مثلا في حزب عربي مستقل، فإنهم بقوا محلّ شبهة، وأُقصوا عن الحلقات المقربة في الهيئات القيادية الوطنية، واتُّهموا بالتعاون مع الأحزاب الصهيونية.

ولدى اندلاع الأعمال العدائية المسلحة بين الجماعتين إعداداً لجلاء القوات البريطانية الوشيك الذي كان مُبرمجاً في أواخر سنة ١٩٤٨، وجد الشيوعيون أنفسهم في حيرة. فمنذ سنة ١٩٢٤، وقبول الحزب الشيوعي الفلسطيني في صفوف الكومنترن، عارض الحزب الجهود الصهيونية الرامية إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين، ووصف الصهيونيين بأنهم عملاء الإمبريالية البريطانية، ودعا إلى الاستقلال، وأيّد الدعوة إلى دولة عربية فلسطينية مستقلة. ولم تكن الدعوة إلى دولة عربية في فلسطين، شأنها شأن الدعوة إلى دولة عربية في سورية أو في العراق ـ وفي كلتيهما أقلية يهودية كبيرة وسواها من الأقليات الدينية والإثنية ـ معنية في المقام الأول بالجماعات الإثنية الصغيرة غير العربية، وإنما كانت موجهة ضد السلطة الاستعمارية ذاتها، أي بريطانيا. وهذا هو الشعار الذي طُرح منذ أوائل عشرينيات القرن العشرين، لكن الأوضاع في أواخر الأربعينيات كانت مختلفة جوهرياً.

وفي سنة ١٩٤٨، نجح الشيوعيون العرب في الاحتفاظ بشكل أوّلي من الوجود المنظَّم، على الرغم من انقسام صفوفهم جرّاء الدعم السوفياتي للتقسيم، والفوضى التي عمّت الجماعة العربية نتيجة غياب أي شكل من أشكال السلطة الوطنية، وجاهروا بأنهم ينظرون إلى طرد البريطانيين من البلد على أنه إنجاز هائل يُضعِف السيطرة الإمبريالية البريطانية على الشرق العربي، وألحّوا على إقامة دولة عربية كما جاء في قرار التقسيم الذي صدر عن الأمم المتحدة، ووصفوا اندلاع الحرب بأنه محاولة لإحباط الرغبة في إقامة دولة مستقلة، ورفضوا دخول جيش الإنقاذ البلد، والدعوة إلى تدخّل مسلح من طرف الدول العربية المجاورة. وقد دفعوا ثمن ذلك في المناطق التي وقعت تحت سيطرة العرب العسكرية تضييقاً وسجناً. وعنى تدمير المجتمع العربي، وتحوّل شعبه إلى لاجئين يعيشون خارج الحدود جرّاء رفض إسرائيل السماح لهم بالعودة إلى بلداتهم وقراهم بعد توقف القتال، فقدان هؤلاء الشيوعيين العرب قاعدة دعمهم الأساسية داخل الطبقة العاملة العربية المنظمة. أمّا الشيوعيون الإسرائيليون فتعاونوا مع القيادة الصهيونية للجماعة اليهودية لإقامة دولة يهودية، وشاركوا في ندوات هيئاتها المنتخبة، وعمد مائير فيلنر، وهو واحد من القادة الشيوعيين المحنّكين منذ أواسط ثلاثينيات القرن العشرين، إلى وضع اسمه على إعلان استقلال إسرائيل، إلى جانب أسماء سواه من قادة الجماعة اليهودية المنظمة.

وأدى تغيّر طبيعة البلد الديموغرافية، وخروج السكان العرب الكلّي تقريباً، إلى انتفاء وجود الفصيل الشيوعي العربي المستقل، وجرى استيعاب ما تبقّى من الشيوعيين العرب القلائل في صفوف الحزب في حركة استعراضية من إعادة توحيد الفصيلين القوميين. غير أن ذلك لم يكن جَمْعَ نصفين متساويين، فقد عاد الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى بداياته، وباتت الأحداث تصوغه، وأبدى عجزاً عن ممارسة أي نفوذ لافت، وأعاد التأسيس من جديد كحزب إسرائيلي. وبينما بقي ملتزماً بالدفاع عن حقوق العمال والأقليات القومية المضطهدة، فقد انتهى به الأمر، بعد عقود من محاولة الحفاظ على منظور أممي، حزباً تقع كتلته الجماهيرية بين الأقلية العربية، لكنها ظلت تعتبره حزباً يهودياً بصورة طاغية. ■

## المصادر


١ G S Israeli, *The History of the Communist Party in Israel, 1919-1953* (Tel Aviv. 1953), (in Hebrew); Walter Lacquer, *The Soviet Union and The Middle East* (London: Routledge and Kegan Paul, 1961); Idem, *Communism and Nationalism in The Middle East* (London: Routledge and Kegan Paul, 1961); J Hen Tov, *The Communist International, the PCP and the Political Unrest in Palestine in 1929* (United States: Worcester,1970); I Spector, *The Soviet Union and the Muslim World, 1919-1958* (United States: Washington, 1967);

الحكم دروزة، "الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية" (بيروت: ١٩٦١).

٢ L. Zahavi, *Apart or Together: Jews and Arabs in Palestine According to the Documents of the Comintern, 1919-1943* (Jerusalem: Keter, 2005), (in Hebrew).

وقد صدرت ترجمة عربية ناقصة بعض الشيء لهذا الكتاب في القدس في سنة ٢٠٠٩: لئون زهافي، "سوية أو على انفراد، العرب واليهود في فلسطين حسب وثائق الكومنترن". وانظر أيضاً: ماهر الشريف (محقق)، "فلسطين في الأرشيف السري للكومنترن" (دمشق: دار المدى، ٢٠٠٤).

٣ بولس فرح، "من العثمانية إلى الدولة العبرية" (الناصرة: الصوت، ١٩٨٥)؛ حنا أبو حنا (محقق)، "مذكّرات نجاتي صدقي" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١)؛ "مذكّرات عودة الأشهب" (جامعة بير زيت: مركز دراسة وتوثيق المجتمع الفلسطيني، ١٩٩٩)؛ فائق ورّاد، "مذكّرات: خمسون عاماً من النضال" (رام الله: منشورات حزب الشعب الفلسطيني، ٢٠٠٥).

٤ كان حمدي الحسيني، غزاوي الأصل، صحافياً نشط في صفوف حزب الاستقلال في يافا، وكثيراً ما اعتُبر رأس تلك المجموعة غير الرسمية من الشباب الراديكالي داخل الحزب (وفي برقية إلى المؤتمر الثاني للتحالف ضد الإمبريالية الذي عُقد في فرانكفورت في تموز / يوليو ١٩٢٩، دوّن اسمه بصفته ممثّل الجناح اليساري في المؤتمر العربي الفلسطيني السابع). وتكشف وثائق الكومنترن التي نُشرت مؤخراً عن قدر كبير من المشاورة والتعاون بين قادة الحزب وحمدي الحسيني، وأن ذلك كان يجري على مستوى شخصي، كما يبدو، من دون معرفة أعضاء الحزب العاديين. وكان ذلك بدفع من الكومنترن، فلم يقتصر الأمر على إدخاله التحالف ضد الإمبريالية، وإشراكه في مؤتمراته الأوروبية، بل أُخِذ إلى موسكو حيث يُقال إنه التقى ستالين نفسه. وتكشف الوثائق أيضاً أن موسكو قدّمت معونات مالية لحمدي الحسيني لإصدار صحيفة يومية وتمويل أسفاره خارج فلسطين. وأتاحت هذه الصلة الوثيقة للحسيني أن يقدّم خلال ثورة ١٩٣٦خططاً للقيام بأعمال مسلحة ضد البريطانيين بغية دعمها وتمويلها من طرف الكومنترن، غير أن هذا الأخير رفض هذه الخطط ووبّخ الحزب على مجرد اهتمامه بها. راجع رسالة من حمدي الحسيني إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني بشأن خطة لاحتلال القدس في ١٩٣٦/٧/١٧. انظر: زهافي، مصدر سبق ذكره، الترجمة العربية، ص ٤٥٣.

٥ تملأ المراسلات بين قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني والقسم الشرقي للكومنترن طلبات متكررة تنشد الدعم المالي ودعم الكوادر. وتظهر سكرتارية الحزب الشيوعي الفلسطيني في الوقت ذاته مستعدة على الدوام لانتقاد مواقفها السياسية إذا ما تناقضت مع مواقف الكومنترن، وملتمسةً نصح هذا الأخير بشأن سلوكها، لتكون على ثقة من أنها تنفّذ تعليماته على النحو الواجب.

٦ أوضح رضوان الحلو، في مقابلة معه في أريحا في شباط / فبراير ١٩٧٤، أن قرارات أمانة الحزب لم تكن تُتخذ قط بأكثرية الأصوات، وأنه إلى أن حُلّ الكومنترن في سنة ١٩٤٣، لم يكن هنالك مجال لاتخاذ أي قرار من غير موافقته، كأمين عام.

٧ وولف أورباخ هو الاسم الحقيقي لأبي زيام (أو حيدر)، اليهودي الروسي، الخبير الذي أرسله الكومنترن إلى فلسطين في سنة ١٩٢٢ لتأسيس الحزب الشيوعي هناك، وامتد نشاطه إلى سورية ولبنان. [المترجم]

٨ R Greenstein, "Zionism, Nationalism and Revolutionary Socialism: The Radical Left and the Colonial Model in Israel/Palestine". in Ilan Pappe (ed.), *Peoples Apart: Israel, South Africa and the Apartheid Question* (United States: IB Tauris 2011), p.14.

وانظر مقالة مشابهة بعنوان:

"Class, Nation & Political Organization: The Anti - Zionist Left in Israel / Palestine", *International Labor & Working Class History*, no. 75 (Spring 2009), pp 85-108.

٩ بشأن موقف قيادة الحزب من محمد نمر عودة ودوره، انظر: فرح، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩–١٠٢؛ مقابلة مع رضوان الحلو، مصدر سبق ذكره.

١٠ M Machover, "Israelis and Palestinians: Conflict & Resolution". An expanded version of the Barry Amiel & Normal Melburn Trust annual lecture, delivered November 30, 2006. *International Socialist Review*, on the historical legitimacy of settler state formation, p.3.

١١ انظر رسالة رضوان الحلو بشأن استخدام نعوت معادية للسامية وتسليح العرب، في: Zahavi, op.cit., p. 464.

١٢ عصبة التحرر الوطني في فلسطين (١٩٤٣–١٩٤٨)، تنظيم "شيوعي" فريد، وقف، على الصعيد التنظيمي، في منتصف الطريق بين صيغة الحزب الشيوعي "الطبقي" وصيغة التنظيم الوطني اليساري العريض، وسعى، على الصعيد السياسي، في بحثه عن حل ديمقراطي للقضية الفلسطينية، للجمع بين الماركسية والليبرالية السياسية، ونجح في أن يعطي النشاط الشيوعي، بين صفوف العرب الفلسطينيين، زخماً لم يشهده تاريخ فلسطين منذ قيام قيادة الحزب الشيوعي الفلسطيني بتبنّي سياسة "التعريب" في سنة ١٩٢٤. [المترجم]

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

## تاريخ فلسطين في طوابع البريد

### مجموعة

### نادر خيري الدين أبو الجبين

طبعة ثانية مزيدة ومحدثة

٤٩٣ صفحة ١٠٠ دولار